« على قبر السلطان صلاح الدين »

خرجنا من المكتبة الظاهرية وتوجهنا إلى جهة الجامع الأموى ، وقبل أن ندخل فيه زرنا ضريح شرف الاسلام والمسلمين ناصر الملة والدين الغازى صلاح الدين الأيوبى الذى بيض الله به وجه الاسلام والمسلمين ، ورفع رأسهم عالياً ورد غارة الصليبيين وكسر شوكتهم . وقفنا أمام باب المقبرة وقفة واستحضرنا مأثرته الكبرى ، وجلالة عمله الخالد ، وذكرنا وقعة حطين التى قضت على الصليبيين وكانت فتحاً للاسلام تضاءلت أمامه الفتوح ، وأثنت عليه الملائكة والروح ، وتمثلت بيتى الزركلى على لسان فلسطين الشهيدة وأهلها :

هاتى صلاح الدين ثانية فينا
وجددى حطين أو شبه حطينا

وأنا من قديم الزمان أحمل للسطان الشهيد نور الدين

زنكى والغازى صلاح الدين الأيوبى من الاجلال والاحترام ما لا أحمل لملك من ملوك الاسلام وأتقرب إلى الله بحبهما والدعاء لهما .

دخلنا إلى قبر المجاهد العظيم الذى انتصر لمحمد ﷺ وأدخل السرور على روحه وغضب لدينه وحفظ للاسلام شرفه وبيته المقدس ، وللامة الاسلامية كرامتها وحريتها ، وترحمت عليه ودعوت الله له ، وأخبرنى الرفاق أن جنرال « غورو » الفرنسى لما جاء وفتح سورية جاء إلى ضريح السلطان وركله برجله وقال : « إلى متى يا صلاح الدين تبقى نائماً ؟ ها قد حضرنا هنا وفتحنا سورية » ، ولا يستبعد ذلك من طيش الفرنسيين وكبر الأوروبيين ، ولكن كما قال الشاعر :

كذاك الحى يغلب ألف ميت .

(مقتبس من كتاب : « مذكرات سائح فى الشرق العربى » للمؤلف) .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمـــة

الحمد لله رب العـالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، و من تبعهم بإحسان وإيمـان وجهاد إلى يوم الدين ، أما بعد :

فان الملك الناصر السطان صلاح الدين الأيوبى معجزة من معجزات الاسلام الخالدة ، و آية من آيات الله الباهرة ، وهو حقيق بأن يعكف على دراسة سيرته وأخباره أجيـال المسلمين وعلماؤهم وحكامهم ، وأصحاب الفتوة والفروسية والطموح والغيرة الاسلامية ، والبطولة الانسانية فى كل زمان ومكـان وفى كل عصر ومصر ، وأن يتنافس المؤلفون ، وحملة الأقلام والمحققون ، فى التأليف فى سيرته ومكارمـه وبطولاته ، وأن تشكل له مجامع علمية ، تنقطع إلى التحقيق والتأليف فى هذا الموضوع ـ ولكن مع الأسف الشديد ـ

لم يوف المسلمون والعرب حق هذا الرجل ، ولم ينصفوا هذا الموضوع ، ولا يزال ما ألف فى بعض اللغات الأوروبية - وخاصة فى اللغة الانجليزية - يفوق كثيراً ما ألف فى اللغات الاسلامية ، ولا يزال هذا الموضوع ينتظر مؤلفاً عالى الهمة ، طويل الدراسة ، دقيق النظر ، رحب الصدر ، واسع الأناة ، يتفرغ للتأليف فى هذا الموضوع .

ولعل هذا العصر الذى نعيشه هو أشد حاجة ، وأكثر طلباً لابراز محاسنه ، وتحديد مكانته فى تاريخ الجهاد والتجديد الاسلامى من كل عصر مضى ، ولا يزال هاتف الغيب يهيب بهذه الأمة على لسان خير الدين الزركلى ويقول :

هاتى صلاح الدين ثانيـــة فينـا
وجددى حطين أو شبه حطينا

وكان قد سبق لى فصل مفرد فى سيرة صلاح الدين ضممته إلى فصول كتاب ألفته فى لغة المسلمين ، واللغة العلمية فى الهند التى تسمى : بـ « أردو » أسميته « تاريخ الدعوة والعزيمة » . ولما ألح على الأخ العزيز الأستاذ « محمد على دولة »

صاحب (دار القلم) فى دمشق بتأليف كتاب فى سيرة هذا الرجل العظيم ، وكنت ولا أزال أعتبر تحقيق هذا الغرض عملا أتقرب به إلى الله ، وأرجو به الخير الكثير لقادة البلاد الاسلامية ، والشباب المثقف الطموح ، ولكن ذلك يحتاج إلى فراغ خاطر ، وسعة من الوقت ، وكثرة مراجعة لما كتب عنه فى عصره وبعد عصره ، فى اللغات الاسلامية والأجنبية ، ولعله لا يتسنى لى إلا بعد مدة طويلة ، فاقترحت على أحد إخوانى الشباب وهو الأستاذ محمد أجمل الاصلاحى الندوى أن ينقل هذا الفصل إلى اللغة العربية ، فانه على وجازته قد احتوى على معلومات مفيدة ، ويعطى صورة إجمالية ، ولكن مشرقة وضاءة لهذا القائد الاسلامى الكبير ، ويشوق إلى دراسة أوسع ، ومعرفة أكمل (وإن لم يصبها وابل فطل) وقام بالترجمة والنقل فى مدة قريبة ، وأحسن وأجاد ، وتناولت عمله بتحرير خفيف وتعديل يسير .

وها هو بين يدى القراء ، عسى أن يجدوا فيه ما يقوى ثقتهم بخلود هذه الرسالة ، ونجابة هذه الأمة ، وقوة الايمان ،

وما يصنع من عجائب ، ويعرفون به الفارق الكبير بين هذا القائد الاسلامى الذى تربى فى أحضان الايمان ، وتخرج فى مدرسة محمد عليه الصلاة والسلام ، وبين القيادة الذين إرتضعوا بلبان الثقافة الأجنبية ، ونشأوا فى أحضان النفعية والمادية ، وأبرزتهم إلى ميدان القيادة الأغراض الشخصية ، والمطامح السياسية ، وهو الفارق الذى ميز تمييزاً كبيراً بين النتائج والآثار ، ولا يزال العالم الاسلامى يكتوى بناره ، ويدفع قيمته . وبالله التوفيق .

١٣٩٥/٤/١٠ هـ ١٩٧٥/٤/٢٣ م

أبو الحسن على الحسنى الندوى

زاوية الشيخ علم الله الحسنى رحمه الله

رائے بريلى

الغارات الصليبية

وخطر جديد على الاسلام

بينما كانت حركة العلم والدرس والتأليف قائمة على قدم وساق فى العواصم الاسلامية وفى العالم الاسلامى ، وكان عدد من كبار المشايخ والمربين منقطعين إلى تزكية النفوس وإصلاح القلوب ، كان العالم الاسلامى كله مهدداً بخطر كبير ، وقد أصبح وجود المسلمين حتى الاسلام نفسه معرضاً للفناء ، وكانت أوروبا النصرانية منذ قديم الزمان تنطوى على حقد دفين للاسلام ، وتضمر له ولأهله عداء توارثته كابراً عن كابر وجيلا بعد جيل ، فقد استولى المسلمون على مملكتها الشرقية التى كانت تحكمها الدولة البيزنطية ، وكانت جميع مقدساتها ومولد المسيح نفسه تحت حضانتهم وسيطرتهم ، وكان يكفى هذا الوضع لاستفزاز

أوروبا وإثارة دافعها لأخذ الثأر من المسلمين ، ولكن لم تكن لتتجاسر على الطموح إلى الشام وفلسطين أو أى بلد إسلامى ، لوجود دول إسلامية قوية وهجماتها المتواصلة على الدولة النصرانيـــة المجاورة ، إلا أنها لما رأت سقوط الدولة السلجوقية وضعف الثغور الشمالية للملكة الاسلامية تشجعت وتطلعت ، وساعدهـا حظها ، فوجـــدت فى هذا العصر خطيباً مصقعاً ، وواعظـــاً دينياً مثيراً ، فى شخصية الراهب « بطرس » الذى ألهب مشاعر النـاس فى العـالم النصرانى بخطبه الرنانة المجلجلة ، وأحدث فيـــه موجة عارمـة من الجنون الدينى ، من أقصاه إلى أقصـاه ، وتضافرت كذلك عوامل أخرى عديدة ، سياسية واقتصادية ، قد حببت الغارات الصليبية إلى النـاس[1] .

على كل حال ، فأول جيش للصليبيين توجه إلى الشام سنة ٤٩٠ هـ ، واستولى فى ظرف عامين على مدن « الرها »

---

(١) راجع دائرة المعارف البريطانية ، مقال CRUSADES

و « أنطاكية » وأكثر قلاعهما ، وأخذوا « بيت المقدس »[1] فى سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٩ م) وفى بضع سنين أصبح جزء كبير من فلسطين وساحل بلاد الشام تحت أيدى الصليبيين مثل « أنطرطوس » و « عكة » و « طرابلس الشرق » ، و « صيدا » . ويصور المؤرخ الانجليزى الكبير « ستينلى لين بول » دخول الجيوش الصليبية فى البلد الاسلامى ، فيقول :

« توغل الجيش الصليبى فى البلاد كما يشق أحد خشباً منخوراً باليا ، وخيل للناس ولو لبرهة من الزمان أن الصليبيين سوف يحطمون جذع دوحة الاسلام ويكسرونها تكسيراً[2] » .

ويتحدث مؤرخ آخر — وهو من كبار المؤرخين النصارى — عما فعل الصليبيون الغاشمون الألداء بالمسلمين المنكوبين العزل الأبرياء عند دخولهم بيت المقدس ، وقد

(١) المراد ببيت المقدس : مدينة القدس .
(٢) « السلطان صلاح الدين الايوبى » .

تملكتهم نشوة الانتصار ، فيقول :

« لما دخل المغيرون الصليبيون بيت المقدس منتصرين وضعوا السيف فى الناس ، وأحـــدثوا مجزرة هائلة ، حتى يقال : إن خيل الصليبيين الذين ذهبوا إلى مسجد عمر راكبين كانت غارقة فى الدماء إلى الركب ، وأخذوا بأرجل الأطفـال وضربوهم عرض الحائط ، أو دوروهم ورموا بهم من سور البلد ، وأحرقوا اليهود كلهم فى هيكلهم وهم احيـــاء » .

« وفى اليوم الثانى تعمدوا مثل هذه الاضطهادات التى ترتعد لها الفرائص عـــلى مستوى أكبر وأوسع ، ولم يزل يناشدهم « تينكرد » ما قـد جعله فى ذمتـه من تأمين ثلاث مائة من الأسرى ، ولـكن لم يستجيبوا لصياحـه ، ولم يراعوا ضمانه ، وقتلوهم عن آخرهم . ثم حدثت مجزرة مريعة ، فقتلت الرجال والنساء والأطفال تقتيلا ، ومثلت اجسادهم تمثيلا ، وقـد تكدست قطع أجسادهم وأعضائهم المرزقـة ، ولمـا انتهت هـــذه المجزرة الهـائلة أمروا الأسرى العرب

فغسلوا شوارع المدينة المتلطخة بالدماء[1] .

وكانت نكسة « بيت المقدس » تؤذن بضعف المملكة الاسلامية وسقوطها ، ويقظة العالم النصرانى ونهوض قوته الناشئة ، وكانت نذير خطر فى العالم الاسلامى ، فقد تأسست أربع ولايات نصرانيـــة فى الشـام وفلسطين (القدس ، وأنطاكية ، وطرابلس ، والرهـا) ، وكانت تشكل خطراً قائمـاً وسيفاً مسلولا على حرية مركـز الاسلام ، وقد توسعت أطماع النصـارى إلى أن هم « ريجى نالد » والى كرك بالزحف على الحرمين الشريفين ، وتفوه بمـا يتضمن الاعتداء على مدفن الرسول ﷺ ، وأبدى نواياه الخبيثة .

والحق أن هذه المرحلة كانت أدق وأحرج مرحلة فى التاريخ الاسلامى بعد وقعـة الردة ، فكان وجود الاسلام معرضاً للخطر ، وقـد تحتم على العالم الاسلامى أن يخوض معركة مصيرية حاسمة .

وفى أوائل القرن السادس الهجرى كان العالم الاسلامى

---

(١) « دائرة المعارف البريطانية » ج : ٦ ، ص : ٦٢٧ .

قد وقع فريسة لاضطراب متزايد وفوضى عامـــة ، فكان خلفاء ملك شاه السلجوقى متحاربين فيما بينهم ، وأما الخلفاء العباسيون فقد نقلوا سيادتهم إلى الأتراك قبل زمن بعيد ، ولم يوجد فى العالم الاسلامى سلطان عملاق أو قائد عبقرى يحمل من صلاحية القيادة وتدبير الأمر ، ما يجمع به البقية الباقية من طـاقات العالم الاسلامى ، ويضمها تحت لواء واحد ، ويقاوم الخطر الذى يتعرض له من الشمال والغرب ، وصدق « ستينلى لين بول » إذ يقول :

« كان هذا العصر عصر لبس واضطراب ، وقـــد يملكهم العجب لمـا يرونه من احتضار مثل الدولة السلجوقية المرهوبة الجانب ، المترامية الأطراف ، وظلت هذه المرحلة — مرحلة الفوضى والاضطراب — إلى أن برزت طـاقات جديدة و وجهت إلى جهة واحدة ، وبالجملة فكان هذا العصر الانتقالى أطيب فرصة لأوروبا لشن الغارة على المملكة الاسلامية وتثبيت انتصارها على وجه الدهر »[1] .

---

(١) السلطان صلاح الدين ، ص ٢١ .

أتابك عماد الدين الزنكى :

وبينما كان العالم الاسلامى يعانى من هـذا الصراع العنيف ، واليأس المتزايد ، والكمد القاتل ، إذ تألق على أفقه نجم جديد ، ووجد العالم الاسلامى — كما تعوده فى أدق مراحله وأحرج مآزقه — قائداً جديداً ، ومجاهداً عبقرياً وبطلا مغواراً ، وبرزت طاقة جديدة عملاقة من حيث لم يكن فى حسبان أحد — يقول « لين بول » :

« تحتم على المسلمين أن يعلنوا الجهاد ، ويقذفوا بقائد عصامى ، يثبت جراءته وبسالته وصلاحيته الحربية ، وينجب أمراء الترك وولاة الدولة طائفة من الأبطال المؤمنين المحاربين ، ليؤاخذوا الصليبيين على ما اقترفوه من عدوان واضطهاد للمسلمين الأبرياء ، وها قد برز القائد العصامى : عماد الدين الزنكى »[1] .

وكان عماد الدين ربيب نعمة السلاجقة ، ومعلم أبناء السلطان محمود السلجوقى ، وقد ولاه السلطان على

(١) السلطان صلاح الدين ، ص ٢٩ .

الموصل ، فجند عماد الدين قواته فى العراق والشام ، وشن الغارة على « الرها » التى كانت أقوى وأحصن منطقة فى ولاية الصليبيين ، ولها أهميتها الاستراتيجية الخاصة ، فاستولى الزنكى عليها فى السادس من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ هـ (٢٣ كانون الأول ١١٤٤ م) وكان انتصاره « فتح الفتوح » كما يعبر عنه المؤرخون العرب ، وكانت هذه المدينة طاقة كبيرة للملكة اللاتينية ، وهكذا تحصن وادى الفرات من خطر الصليبيين . وبعد مدة قليلة من هذا الانتصار الباهر استشهد عماد الدين بيد عبد فى سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) ، ولكن باب الجهاد الرائع و الكفاح المتواصل للصليبيين الذى فتحه قبل شهادته لم يزل مفتوحاً على مصراعيه بفضل جهود ابنه الكبير الملك العادل نور الدين الزنكى الذى فاق فى ذلك والده العظيم .

الملك العادل نور الدين الزنكى :

واليوم كان نور الدين محمود سلطان الشام ، وكان يرى نفسه مأموراً من الله تعالى لدحر الصليبيين واستعادة بيت

المقدس ، ويعتبر ذلك أكبر عبادة وأعظم وسيلة للتقرب إلى الله ، وقد استقرت مهابته فى جميع الولايات الصليبية لغاراته المتواصلة عليها .

وقد فتح فى سنة ٥٥٩ هـ قلعة « حارم » التى كانت من قلاع الثغور الشمالية المنيعة ، وكان فى جملة الأسرى صاحب « أنطاكية » والقمص صاحب « طرابلس » والدوك مقدم « الروم » و « ابن جوسلين » وغيرهم من كبار قوادهم ، والصليبيون فى هذه المعركة بين قتلى يزيد عددهم على عشرة آلاف قتيل ، وبين أسرى لا يأتى عليهم العد والاحصاء . وفى نفس السنة فتح السلطان قلعة « بانياس »[1] ، وكذلك استولى على مصر فحاصر الصليبيين من جهتين . يقول « لين بول » :

« إن سيطرة قائد نور الدين — سلطان الشام — (صلاح الدين) على النيل قد جعلت دولة القدس الصليبية بين شقى العصا . فكانت تحت وطأة شديدة من ذلك ، ولم

(١) « الكامل » لابن الأثير (١٢٤/١١) .

يكن الذى يضغطها من كلا الجانبين إلا جيشين لنفس القوة ، وبفضل استيلائهم على مرفأى دمياط والاسكندرية أخذوا أسطولا بحرياً ، فقطعوا صلة الصليبيين المصريين بأوروبا »[1] .

على كل حال فقد طرد السلطان الصليبيين — إلى حد كبير — من جميع أنحاء منطقة فلسطين ، ولكن أحسن أعماله ، وأغلى آماله ، وأحلى أمانيه ، كانت تتركز فى استعادة بيت المقدس من أيدى الصليبيين المحتلين ، ومن يدرى ! فان القدر المحتوم قد كتب هذه الكرامة لقائد جيوشه السلطان صلاح الدين الأيوبى ، الذى هو بنفسه خليق بأن يعتبر من حسنات نور الدين ومآثره . وتوفى السلطان نور الدين فى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) فى مرض الخناق بالغاً من عمره ستاً وخمسين سنة ، وقد طرق نعى السلطان — كما يصف المؤرخ الانجليزى — آذان المسلمين كصاعقة سقطت عليهم من السماء[2] .

---

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص ٨٩ .

(٢) « السلطان صلاح الدين » : ص ١١٥ .

اخلاق نور الدين ومحامده :

وقد بالغ جميع المؤرخين المسلمين فى الثناء على السلطان نور الدين محمود ، ووصفوه بالتقوى والأمانة والعدل وحسن الادارة ، وكرم النفس ورقة الخلق ، وولوعه بالجهاد فى سبيل الله ، فالسلطان — كاسمه — ممدوح عند جميعهم ومحمود .

يقول ابن الجوزى — وهو من معاصرى السلطان — فى تاريخه « المنتظم » :

« جاهد الثغور ، وانتزع من أيدى الكفار نيفاً وخمسين مدينة ، وكانت سيرته أصلح من كثير من الولاة ، والطرق فى أيامه آمنة ، والمحامد له كثيرة ، وكان يتدين بطاعة الخلافة ، وترك المكوس قبل موته ، وكان يميل إلى التواضع ، ومحبة العلماء وأهل الدين »[1] .

ويصفه ابن خلكان — وهو معروف بأمانته التاريخية ، ودقته وتحفظه فى اختيار الكلمات ، واقتصاده فى الوصف

---

(١) « المنتظم » لابن الجوزى .

والثناء — فيقول :

« كان ملكاً عادلا زاهداً عابداً ورعاً متمسكاً بالشريعة ، مائلا إلى الخير ، مجاهداً فى سبيل الله تعالى ، كثير الصدقات ، بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار . . وله من المناقب والمآثر والمفاخر ما يستغرق الوصف »[1] .

ويتحدث عنه صاحب تاريخ الكامل — وهو المؤرخ الكبير ابن الأثير الجزرى — فيقول ما لا مزيد عليه لمستزيد :

« وقد طالعت سير الملوك المتقدمين ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ، ولا أكثر تحرياً منه العدل »[2] .

وكان ابن الأثير عندما توفى السلطان فى الرابعة عشرة من سنه ، ولذلك فقوله جدير بأن يكون أكثر دقة وصحة ، وأن ينم عن اطلاع ومعرفة .

---

(١) « وفيات الأعيان » ترجمة محمود نور الدين الزنكى .

(٢) « الكامل » : ١٦٤/١١ .

فيقول ابن الأثير وهو يصف سيرة السلطان ويشيد بأخلاقه :

« كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا فى الذى يخصه من ملك كان له ، قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين ، ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة فأعطاها ثلاث دكاكين فى حمص كانت له ، يحصل له منها فى السنة نحو العشرين ديناراً ، فلما استقلتها قال : ليس لى إلا هذا ، وجميع ما بيدى أنا فيه خازن للمسلمين ، لا أخونهم فيه ، ولا أخوض نار جهنم لأجلك ! ! وكان يصلى كثيراً بالليل ، وله فيه أوراد حسنة[1] .

« وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبى حنيفة ليس عنده فيه تعصب ، وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر » .

« وأما عدله فانه لم يترك فى بلاده — على سعتها — مكساً ولا عشراً ، بل أطلقها جميعها فى مصر والشام والجزيرة والموصل ، وكان يعظم الشريعة ، ويقف عند

(١) « الكامل » : ١١/١٦٣ .

أحكامها ، وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم ، فمضى معه إليه ، وأرسل إلى القاضى كمال الدين ابن الشهرزورى يقول : قد جئت محاكماً فاسلك معى ما تسلك مع الخصوم ، وظهر الحق له فوهبه الخصم الذى أحضره ، وقال : اردت أن أترك له ما يدعيه ، إنما خفت أن يكون الباعث لى على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة ، فحضرت ، ثم وهبته ما يدعيه . وبنى دار العدل فى بلاده ، وكان يجلس هو والقاضى فيها ينصف المظلوم - ولو أنه يهودى - من الظالم — ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده — » .

« وأما شجاعته فاليها النهاية ، وكان فى الحرب يأخذ قوسين وتركشين ليقاتل بهما ، فقال له القطب النشاوى الفقيه : بالله عليك ، لا تخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين ، فان أصبت فى معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف ، فقال له نور الدين : ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ ! من قبلى من حفظ البلاد والاسلام ؟ ذلك الله الذى لا إله إلا هو » ! !

« . . . وكان يكرم العلماء وأهل الدين ، ويعظمهم ويعطيهم ، ويقوم إليهم ، ويجلسهم منه ، وينبسط معهم ، ولا يرد لهم قولا ، ويكاتبهم بخط يده ، وكان وقوراً مهيباً مع تواضعه . وبالجملة فحسناته كثيرة ، ومناقبه غزيرة ، لا يحتملها هذا الكتاب[1] .

ولوعه بالجهاد وقوة إيمانه بالله تعالى :

وكان جل هم السلطان نور الدين منصرفاً إلى الجهاد ومحاربة الصليبيين ، فالجهاد شغله الشاغل وهوايته المحببة ، وكان يتمتع فى ذلك بقسط وافر من الايمان واليقين ، والعزم والاخلاص ، والتوكل على الله تعالى ، وبعد الهمة والثقة بالنفس .

وفى سنة ٥٥٨ هـ انهزم نور الدين فى معركة حصن الأكراد — وهى الوقعة المعروفة بالبقيعة — لمباغتة الصليبيين ، وكان نازلا بالقرب من حمص ، وكان بينه وبين العدو عدة فراسخ ، فقال للسلطان بعض من كان يمحض النصيحة له :

---

(١) « الكامل » : ١١/١١٩ .

ليس من الرأى أن يقيم السلطان ههنا والعدو المنتصر جد قريب ، فأسكته السلطان وقال :

« إذا كان معى ألف فارس لقيتهم ولاأبالى بهم ، والله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأرى وثأر الاسلام » .

وفرق السلطان الأموال فى العسكر ، وأغدق عليهم العطايا ، وقال له بعضهم : إن لك فى بلادك إدرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء وغيرهم ، فلو استعنت بها فى هذا الوقت لكان أصلح ، فغضب السلطان من ذلك ، وقال :

« والله إنى لا أرجو النصر إلا بأولئك ، فقد جاء فى الحديث الشريف « إنما ترزقون وتنتصرون بضعفائكم » كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم على فراشى بسهام لا تخطىء ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عنى إلا إذا رآنى بسهام قد تصيب وقد تخطىء ، وهؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المال ، كيف يحل لى أن أعطيه غيرهم[1] ؟ ! » .

---

(١) « الكامل » : ١١٩/١١ .

وأخـــذ السلطـان نور الدين فى الاستعداد والتأهب للجهاد والأخذ بثأره من الصليبيين الذين هزموه ، وأغدق على العسكر الأموال والمنح والسلاح ، وأرسل إلى أصحـاب الأطراف وولاة الأمر فى البلاد الاسلامية ، يحرضهم على الجهـاد فى سبيل الله والانضمام إلى لوائه ، وكاتب زهادها وعبادها ، وصلحاءها وقراءها ، يذكرهم ما لقى المسلمون من الفرنج ، يستمد منهم الدعاء ، ويطلب أن يحثوا المسلمين على مكافحـــة الغزاة ، فقعد كل واحد من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه ، وهم يقرؤون كتب نور الدين ويدعون له ويبكون[1] ، حتى ثار النـاس للجهاد فى سبيل الله ، ونفروا خفافاً وثقـالا ، وجاء العدو بخيله ورجله ، وحده وحديده ، وملوكه وفرسانه ، وقسوسه ورهبانه ، فحمى الوطيس ، وشبت حرب شعواء ، وأوفى السلطـان بنذره ، فهزم قوى العـدو الموحدة هزيمـــة نكراء ، واستولى على قلعة حارم ، وانتزعها من أيدى الأعـــداء .

---

(١) « الكامل » : ١٢٢/١١ — ١٢٣ .

ومما يدل على قوة إيمان نور الدين ويقينه ، أن أخاه « نصرة الدين » أمير « أميران » أصابه سهم فى محاصرة قلعة « بانياس » فأذهب إحدى عينيه ، فلما رآه نور الدين قال له :

« لو كشف لك عن الأجر الذى أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى ! » (١) .

(١) « الكامل » : ١١/١٢٣ .

السلطان صلاح الدين

إن شخصية صلاح الدين الأيوبى معجزة كبيرة من معجزات الاسلام ، وآية باهرة من آيات صلاحيته وخلوده .

نشأ السلطان جندياً عريقاً وسليل أسرة كردية متوسطة ، ولم يكن فى حساب أحد — قبل فتح مصر وحروبه ضد الصليبيين — أن هذا الشاب الكردى اليافع سيكون فاتحاً لبيت المقدس ، وحارساً لأمانة الاسلام ، وذائداً عن حوزة العالم الاسلامى ومعيداً لمجد المسلمين وعزهم وكرامتهم ، ولم يكن يحسب أحد أنه قدرت له السعادة التى يغار عليها كبار الصلحاء والعباد وكرام المحاتد والاعراق ، وأنه يقوم بالعمل الجليل الذى يدخل على روح النبى العليه الغبطة والسرور .

يقول « لين بول » :

« ظل صلاح الدين مثلا لامعاً للتقوى الذى يتسم بالصمت والهدوء الروحى ، ويجنب الطبائع الكريمة من التلوث بالشوائب الخلقية ، ولما يأت بيادرة تدل على أنه سوف يصبح رجلا عملاقاً ، أو بطلا من أبطال التاريخ[1] » .

ولكن لما قيضه الله لهذا العمل العظيم هيأ له الأسباب من لدنه ، فألح عليه ولى نعمته السلطان نور الدين ، وبعثه إلى مصر .

يقول القاضى بهاء الدين بن شداد أمين سر السلطان صلاح الدين فى كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » :

« ولقد قال لى السلطان — قدس الله روحه — : كنت أكره الناس للخروج فى هذه الواقعة (يعنى الخروج إلى مصر) وما خرجت مع عمى[2] باختيارى ، وهذا معنى قوله

---

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص : ٦٣ .

(٢) هو أسد الدين شيركوه الذى أرسله نور الدين محمود للاستيلاء على مصر .

سبحانه وتعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم [1] ».

تحول فى حياة صلاح الدين :

لما وصل صلاح الدين إلى مصر ، وخلا له الجو ، وأخذ بزمام الحكم ، وقع تحول عظيم فى حياته ، وتمكن فى قلبه أن الله تعالى قدرله عملا جليلا لا يلائم الترف والرفاهية ونعومة الحياة ، يقول القاضى ابن شداد :

« وملك الرجال ، وهانت عنده الدنيا ، فملكها وشكر نعمة الله عليه ، فتاب عما مضى ، وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص بلباس الجد والاجتهاد ، وما عاد عنه ولا ازداد إلا جداً إلى أن توفاه الله إلى رحمته »[2] .

ويؤيد ذلك ما يقوله المؤرخ النصرانى :

« وأما بالنسبة لنفسه فان صلاح الدين شدد فى أمور حياته ، وبالغ فى زهده وورعه اللذين كان يمتاز بهما من قبل أيضاً ، وصرف نفسه عن رغد العيش ، وتجافى عن ملذات

---

(١) « النوادر السلطانية » : ص ٣١ .

(٢) النوادر السلطانية : ص ٣٢ — ٣٣ .

الحياة ، وضيق على نفسه فى جميع شؤونه ، ليكون قدوة لرفاقه وزملائه ، واستنفد جهده لتأسيس دولة إسلامية جبارة تتمتع بقدرة كاملة على إجلاء الكفار عن المملكة الاسلامية كلياً ، فقال مرة : إن الله لما أعطانى مصر حسبت أنه قدر لى فلسطين أيضاً . ومنذ ذلك الوقت لم تزل غاية حياته انتصاراً للاسلام ، وإظهاراً له على الدين كله ، وقد عاهد الله على محاربة الكفار والجهاد فى سبيل الله إلى آخر حياته[1] » .

شغفه بالجهاد وحنينه إلى الشهادة :

كان السلطان صلاح الدين ولوعاً بالجهاد ، كثير الاهتمام به ، فكان الجهاد عبادته ، ولذة عيشه ، وغذاء روحه ،وطيب نفسه ، يقول القاضى بهاء الدين بن شداد :

« ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً ، بحيث ما كان له حديث

---

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص : ١٨٦ .

إلا فيـــه ، ولا نظر إلا فى آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه ، ولقـــد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله اهله وأولاده ، ووطنـــه وسكنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمـة تهب بهـا الرياح ميمنـة وميسرة . . وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد . . ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجـه إلى الجهاد دينـاراً ولا درهماً إلا فى الجهاد أو فى الأرفاد لصدق وبر فى يمينه[1] » .

ويصور ابن شداد حنين السلطـان إلى الجهاد وغرامه به وتوجعه للاسلام ، فيقول :

« وجرى فى ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين ، وهو كالوالدة الثكلى يجول بفرسه من طلب إلى طلب ، ويحث الناس على الجهاد ، ولقد بلغنا أن الملك العادل حمل بنفسه فى ذلك اليـوم مرتين ، والسلطـان يطوف بين الأطلاب

---

(١) « النوادر السلطانية » : ص ١٦ — ١٧ .

بنفسه ، وينادى يا للاسلام ، وعيناه تذرفان بالدموع »[1] .

« ولم يطعم (فى معركة عكة) طعاماً البتة ، وإنما شرب أقداح مشروب ، كان يشير بها الطبيب »[2] .

« ولقد أخبرنى بعض أطبائه أنه بقى من يوم الجمعة إلى يوم الأحد ، لم يتناول من الغذاء إلا شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه »[3] .

معركة حطين الحاسمة :

وأخيراً ، وبعد حرب ومناوشات كثيرة ، وقعت المعركة التى كانت معركة مصيرية حاسمة عبر التاريخ ، قضت على دولة فلسطين الصليبية ، وقررت مصير الصليبيين المحتوم ، وهى معركة حطين التى اندلعت فى يوم السبت ١٤ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ (٤ تموز ١١٨٧ م) وفتح الله للمسلمين فيها فتحاً مبيناً .

(٢،١) نفس المصدر : ص : ١٥٥ .

(٣) نفس المصدر : ص : ٩٠ .

يصور « لين بول » ميدان الحرب فيقول :

« أسر كبار قواد الجيش الصليبي وفرسانه ، وكان من جملة الأسرى « كائى » صاحب « القدس » وأخوه « جاتيلان » و « ريجى نالد » صاحب « جنين » و « الهمغرى » صاحب « تنين » ومقدما الداوية والاسبتار ، وغيرهم من رجالات الصليبيين ومقدميهم ، وكان سائر فرسان الصليبيين الفلسطينيين وشجعانهم تحت حراسة المسلمين ، ولم يسلم من الجند الصليبي فارس أو راجل إلا أسره المسلمون ، وقد رأوا أن شخصاً واحداً من المسلمين يذهب بثلاثين صليبياً ، أخذهم وحده ، مشدودين بطنب[1] من أطناب خيمته ، وقد تكدست أجساد القتلى بين الصلبان والأعضاء المقطعة ، وتراكمت كالصفائح والأحجار بعضها فوق بعض ، وأما هاماتهم المقطوعة فكانت متناثرة كثمار البطيخ فى مزرعة[2] » .

« وظل هذا الميدان الذى وقعت فيه معركة حطين

---

(١) الطنب : الحبل الذى يربط بالوتد .

(٢) « السلطان صلاح الدين » : ص ١٨٧ — ١٨٨ .

الطاحنة – والذى يقال فيه أنه قتل فيه ثلاثون ألف رجل معروفاً لديهم ، وبعد عام من وقوع المعركة كانت أكوام العظام البيضاء تلوح للناس من بعيد ، وكان ما تركه الوحوش من قطع الأشلاء منتشراً هنا وهناك[1] .

غيرة السلطان الدينية :

سيسجل قلم التاريخ باعجاب وإكبار - مع هذا الفتح المبين - تلك القصة التى تدل على قوة إيمان السلطان صلاح الدين وغيرته الدينية المتأججة ، فلندع المؤرخ الانجليزى يتحفنا بحكاية هذه القصة التى تشعل مجامر القلوب ، وتشحنها بالايمان واليقين ، وتثير كامن الغيرة فى نفوس المسلمين :

« أمر السلطان صلاح الدين فضربت خيمته فى ميدان القتال ، واستحضر الأسرى ، فجئ بالملك « كاى » و « ريجى نالد » و « جاتيلان » صاحب « جنين » كليهما ، فأجلس السلطان الملك بجانبه ، ولما رآه فى أشد حال من

(١) نفس المصدر ؛ ص ١٨٩ .

العطش قدم إليه قدحاً من الماء المثلج فشرب منه الملك ، وناول بعضه « ريجى نالد » « حاكم كرك » فكره السلطان ذلك وقال للترجمان : قل للملك : أنت الذى سقيته وأما أنا فما سقيته ، وإنا إذا قدمنا إلى أحد رغيفاً أو ملحاً أمن بذلك ، ولن يفلت هذا الرجل من غضبي ونقمتى ، ثم لم يلبث أن قام إلى « ريجى نالد » الذى كان لم يزل واقفاً على رجليه منذ دخل الخيمة ، فقال له السلطان : ألا إنى نذرت قتلك مرتين : مرة حينما كنت أردت الزحف على الحرمين الشريفين ، وأخرى حينما هجمت على قافلة الحجاج وغدرت بهم ، وها أنا ذا أنتصر لمحمد ﷺ على غدرك واستخفافك بالمقدسات ، قال ذلك وسل سيفه ، وضرب عنق « ريجى نالد » بيده وفاء لنذره[1] ، وقضى الحرس على مابقى فيه من رمق ، ولما رأى الملك « كائى » عاقبة صاحبه المريعة فزع واستشعر

---

(١) وأضاف إلى ذلك ابن شداد : « أنه لما غدر بالقافلة ناشدوا الله والصلح الذى بينه وبين المسلمين ، فقال : « قولوا لمحمد كم يخلصكم » فلما بلغه رحمه الله ذلك عنه نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه » ص : ١٢٧ .

الخوف ، ولم يشك أنه سيثنى به ، فطيب السلطان نفسه ، وقال : ليس من عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فانه نقض العهد مرة بعد مرة فجرى ما جرى »[1] .

ويقول ابن شداد :

« واستحضر البرنس « أرناط » وأوقفه على ما قال ، وقال له : ها أنا أنتصر لمحمد عليه الصلاة والسلام ، ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل[2] » .

فتح بيت المقدس :

وبعد معركة حطين سرعان ما حانت الساعة المباركة التى كان يتلهف لها السلطان ، ويسمو إليها ويهفو منذ أعوام طوال ، وهو فتح بيت المقدس ، يقول القاضى ابن شداد :

« وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله

---

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص ١٨٨ .

(٢) « النوادر السلطانيه » ص ٦٤ .

الجبال »[1] .

وفى ٢٧ رجب من نفس السنة دخل السلطان بيت المقدس ، وبعد تسعين سنة عادت هذه القبلة الأولى - التى صلى فيها محمد ﷺ بالأنبياء عليهم السلام فى ليلة الاسراء - إلى حضانة الاسلام و وصاية المسلمين ، وكان من حسن الصدفة أن السلطان دخل بيت المقدس فى نفس التاريخ الذى أكرم الله فيه النبى ﷺ بالمعراج .

يقول ابن شداد :

« وكان فتحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلق عظيم ، ومن أرباب الحرف والطرق ، وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسر الله على يده من فتوح الساحل وشاع قصده القدس ، قصده العلماء من مصر ومن الشام ، بحيث لم يتخلف معروف من الحضور ، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير ، وخطب فيه ، وصليت فيه الجمعة يوم فتحه ، وحط الصليب الذى كان على قبة الصخرة وكان شكلا عظيماً ،

---

(١) النوادر السلطانية : ص : ٢١٣ .

ونصر الله الاسلام نصر عزيز مقتدر[1] » .

وكان السلطان نور الدين الزنكى رحمه الله قد صنع منبر بيت المقدس ، واهتم به اهتماماً كبيراً ، وتحمل فى سبيله تكاليف باهظة ، رجاء أن يعيد الله بيت المقدس إلى أيدى المسلمين فينصب المنبر فيه ، فطلبه السلطان صلاح الدين ، ونصبه فى المسجد الأقصى[2] .

من روائع « الخلق العظيم » :

وأخلق بنا أن نسمع بلسان المؤرخ النصرانى ما ضرب به السلطان صلاح الدين الأيوبى فى ذلك اليوم من أروع مثل للخلق الاسلامى العظيم ، من كرم الطبع ، ورحابة الصدر ، وسماحة النفس :

« لم يظهر فى يوم من الأيام من مروءة السلطان وبعد همته وكرم طبعه ما ظهر يوم تسلم المسلمون مقاليد « بيت المقدس » فتولى جنده وعماله أمر البلد ، وكانوا يمنعون

(١) « النوادر السلطانية » : ص ٦٦ .
(٢) راجع تاريخ أبى الفداء الحموى .

الناس عن أى عدوان وعسف ، فلم يصب أحداً من الصليبيين أذى ، وكان حرس الملك يحرسون جميع شوارع البلد الخارجية ، وكان على باب داؤد أحد العمال الأمناء ، ليأذن لكل من أدى الفدية من أهالى البلد بالخروج منه[1] » .

ويذكر المؤرخ بعد ذلك أن أخا السلطان (العادل) والبطريق وبالیان أطلقوا آلافاً من الأرقاء ، ثم يقول :

« ثم قال صلاح الدين لقواده : تصدق أخى عن نفسه ، وتصدق بالیان والبطريق كل عن نفسه ، والآن أتصدق أنا عن نفسى ، فلم يلبث أن أمر جنده لينادوا فى جميع طرقات البلد وأزقته باطلاق سراح الشيوخ والضعفاء الذين لا يطيقون أداء الفدية فيذهبوا حيثما شاؤوا ، فبدأوا يخرجون من باب « أليعازر » ، ومازالت تخرج جماعاتهم منذ طلوع الشمس إلى غروبها ، وذلك ما تصدق به صلاح الدين على فقراء ومساكين يتجاوز عددهم الحصر .

وبالجملة فان صلاح الدين حف هذه المدينة التى

---

(١) « السلطان صلاح الدين » .

فتحها وانتزعها من أيدى الصليبيين بعطفه وكرمه ، ومروءته وسماحته ، مما يذكرنا بما فعله الصليبيون الأول يوم فتحوا « بيت المقدس » سنة ١٠٩٩ م من أفاعيل الهمجية النادرة البشعة ، يوم مر « غودجر » و « تنكرد » بأسواق بيت المقدس وشوارعها فرآها مليئة بالأشلاء ، وكان الجرحى يئنون ويصرخون ويتألمون ويستغيثون ، وقد بلغت أنفسهم التراقى ولم يبق فيهم إلا الذماء ، يوم أحرقوا المسلمين الأبرياء ، وعذبوهم بأبشع ألوان العذاب والتنكيل ، وقد لجأ عدد من المسلمين إلى سقوف القدس وأبراجه ، فرشقهم هؤلاء الصليبيون الغاشمون بسهامهم وأسقطوهم إلى الأرض ، وقد مزقت هذه المجزرة التى قاموا بها سرابيل كرامة العالم النصرانى ، وسود ما اعتسفوه من جور وعدوان واضطهاد وآثام وجه هذا البلد الطاهر المقدس ، حيث ألقى المسيح دروس الحب والعطف وقال :

طوبى للراحمين العاطفين الذين تنزل عليهم رحمة الله وبركاته .

وقد تناسى هؤلاء الصليبيون كلام المسيح عندما كانوا يحولون هذه الأرض المقدسة إلى مذابح للمسلمين المنكوبين ، أفلم يكن من سعادة هؤلاء الصليبيين القساة أن صلاح الدين شملهم بعطفه ورحمته ؟ ! .

والرحمة من أعظم صفات الله ، فهى تاج العدل وجلاله ، فأينما استطاع العدل وحق له أن يقتل نفساً ، استطاعت الرحمة أن تنقذها وتحييها .

ولو لم يذكر الدهر من مكارم السلطان صلاح الدين وجلائل أعماله إلا أنه كيف استعاد « بيت المقدس » ، لكانت تكفى هذه المكرمة وحدها للدلالة على أنه لم يكن - فى مروءته وشهامته وبعد همته وكرامته - وحيد عصره وفريد دهره ، بل كان رجلا وحيد العصور والأجيال كلها (١) .

التيار الصليبي الجارف :

وللمرة الأخرى ثارت ثائرة أوروبا بعد فتح « بيت المقدس » وهزيمة « حطين » المخزية وفشل الصليبيين الذريع ،

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص : ٢٠٢ — ٢٠٥.

فتكالبت أوروبا بأسرها على بلد صغير مثل الشام بجنودها المجندة وملوكها الكبار وفرسانها البواسل وقوادها الشجعان ، مثل « قيصر » و « فريدريك » و « رتشرد قلب الأسد » وملوك إنجلترا وفرنسا وصقلية والنمسا وبوغندى وفلاندرز وأمرائها ، ولم يقم فى وجههم إلا السلطان صلاح الدين وأقاربه وعدة من خلفائه ، يناضلون عن الاسلام ، ويحمون ذمار المسلمين ، ويقاتلون عن العالم الاسلامى كله .

الصلح وإنجاز العمل وإكماله :

وأخيراً ، تم الصلح بين الفريقين اللذين قد نالت منهما الحروب الدامية المتواصلة التى دامت خمسة أعوام نيلا كبيراً فى « الرملة » ، سنة ١١٩٢ م ، وبقى « بيت المقدس » والمدن والقلاع التى فتحها المسلمون تحت أيديهم إلا ولاية « عكة » الصغيرة التى يحكمها الصليبيون ، وظل صلاح الدين سلطان سائر البلاد وصاحب الأمر والنهى فيها ، وتم على يده العمل الذى تولى مسؤولية إنجازه ، وبعبارة أصح : الذى قيضه الله له وفوضه إليه .

يتحدث المؤرخ النصرانى عن انتصار السلطان ، وانتهاء سلسلة الحروب الصليبية المشؤومة ، فيقول :

« و ضعت الحرب المقدسة أوزارهـا ، وخمدت نيران الحروب التى استغرقت خمسة أعوام متتـابعات ، ولم يكن المسلمون يملكون قبل فتح حطين فى تموز سنة ١١٨٧ م بوصة من الأرض فى غربى نهر الأردن ، وأما يوم جرت الهدنة برملة فى أيلول ١١٩٢ م فكان ما بين صور ويافا كله تحت أيدى المسلمين إلا رقعـة صغيرة على الساحل ، ولم يكن فى الهـدنة شىء يخجل صلاح الدين البتـة ، ولا شك أنه بقى معظم ما أخذه الصليبيون تحت يد الافرنج ، ولـكن النتيجة بالنسبة لهم كانت ضئيلة جداً إذا نظرنا إلى ما استهلكته الحروب من نفوسهم ونفائسهم فحسب ، ولم يستنجد « بطريق » روما ، إلا رفع سائر العالم النصرانى سلاحه وخاض المهمة ، واستفرغ الجهود كل من « قيصر » و « فريدريك » وملوك انجلترة وفرنسا وصقلية ، و « ليوبولد » صاحب النمسا و « ديوك » صاحب بوغندى ، و « كاونت » صاحب فلاندرز ، وملك

« بيت المقدس » الصليبي وغيره من الصليبيين الفلسطينيين ، وكبار فرسان داويه والاسبتار ، ومات عدد من ملوك وقواد وأمراء كافة الأمم النصرانية ، عسى أن يملكوا بيت المقدس ويفلحوا فى إنقاذ دولة « بيت المقدس » الصليبيـــة التى قـد أشرفت على الانهيار ، وقد تمنوا أن تورق دوحة آمالهم مرة أخرى ، ولـكن ماذا كانت النتيجة ؟ .

هلك قيصر « فريدريك » فى هـــذه الأثناء ، وارتحل ملوك إفرنجـــة وفرنسا إلى بلادهم ، وثوى فى ثرى « بيت المقدس » أعز أصدقائهم وكبار أصحابهم وجلة أشرافهم ، ولم يزل « بيت المقدس » فى يد صلاح الدين رغم أنوفهم ، اللهم إلا دويلة عـلى ساحل « عكة » ، كان يحكمها ملـكها الصليبى المزعوم » .

« وفى الحرب الصليبيـــة الثالثة تداعى العالم النصرانى وجند طـاقاته وأجلب على صلاح الدين ، ولـكنهم لقوا منه صخرة صمـاء استعصت على الرجال وأعياهم انصداعها ، وأما جنود السلطان فقد أنهكهم ما لم يزالوا يعانونه من جهد مرير

وتعب متواصل وعناء رتيب وعمل خطير غير مأمون منذ أعوام وشهور طوال ، ولكنهم مع ذلك لم ينبسوا ببنت شفة فى شكوى مما أصابهم ، ولم يعص أحد السلطان فى الحضور عند طلبه وعرض نفسه فى سبيل هذا العمل الصالح ، وربما يكون قد وقع شىء فى قلوب ولاة الدولة الخاضعين للسلطان فى الوديان النازحة لنهر دجلة لطلب السلطان الدائم للمدد ، ولكنهم على كل حال جاؤوا بجنودهم عند السلطان بكل حماس وإخلاص ، وقد حاربت أفواج الموصل فى المعركة الأخيرة التى وقعت فى « أرسوف » بشجاعة نادرة وحماسة منقطعة النظير ، ولم يزل السلطان فى هذه الحروب كلها على ثقة من جيوش مصر والعراق ، تمده وتعضده وتسانده كلما احتاج إليها ، وكذلك عززه الجنود الشمالية والمركزية لبلاد الشام دائماً ، فكان العرب والمصريون والأكراد والأتراك كلهم خدماً طائعين للسلطان ، والمسلمين ، والحق أنهم سارعوا إلى الحضور كلما طلبهم السلطان ، كأنهم خدم له فعلا ، وقد جمعهم السلطان على اختلاف ألوانهم

وسلالاتهم وعناصرهم وعلى ما كان بينهم من منافرات قبلية ، ومفاخرات ومخاصمات قومية ، كأن الجنود كلهم جسد واحد ، وكل منهم ينتمى إلى عسكر واحد ، ولا شك أن السلطان واجه مرة أو مرتين عقبات فى سبيل جمعهم تحت لواء واحد ، وعاين فى بعض الأحيان اختلافاً كبيراً فى طبائعهم ، ومن هذه المواقف الدقيقة تمرد الجند فى يافا ، و لكن مع ذلك ظلت هذه الجنود التى تنتمى إلى عناصر وأجيال شتى متحدة وخاضعة للسلطان إلى فصل الخريف سنة ١١٩٢ م ، ومنذ أن طلبهم السلطان لأول مرة فى سنة ١١٨٧ م ، ظلت تجاهد فى سبيل الله إلى نهاية الأمر ، وفى هذه الفترة كلها لم تخرج عليه ولاية من ولاياته ، ولم يتمرد أحد من قواده وعماله ، ولو أنهم — بحكم ما علق عليهم من الآمال الجسام نظراً إلى قوتهم وإخلاصهم ومصابرتهم — كان فى وسعهم أن يهزموا القوى الأجنبية ويزلزلوا دعائمها ، مهما بلغت عقائدها وقياداتها من العز والصلابة والمنعة وصلاحية الدفاع والبقاء ، وإذا لم نجـــد عبر الفترة كلها إلا استثناء واحداً وهو تنصل

أحد أقارب السلطان منه (وأصلح الأمر بالصفح عنه فيما بعد) عرفنا مدى ما كان يتمتع السلطان به من نفوذ عجيب فى رعيته ، ومهابة غريبة تمكنت فى قلوب الناس مع حب وتقدير له ، وكان ولا يزال السلطان وحده يملك الأمر من جبال كردستان إلى صحراء نوبة بعد انتهاء المحن والشدائد التى جرتها الحروب المتواصلة أيضاً ، وهؤلاء — ملك كردستان و « كاثلين » صاحب أرمينية وسلطان قونية و قيصر قسطنطينية — كلهم يحبون من وراء الحدود أن يعتبرهم السلطان أنصاراً له وأحلافاً ، ولكن لم يطوق السلطان عنقه بمنة أحد من هولاء الأنصار و « الاتحاديين » ، فلم يساعدوه قط ، وإنما حضروا إليه ليهنئوه بما أحرزه من النجاح فى الصراع الذى خاضه السلطان صلاح الدين وحده » .

« ولا يمكن أن يقال فى أحد من قواد السلطان — الذى كان يستشيرهم — أنه استأثر بالأمر لدى السلطان : إلا ما كان فى آخر حياته من أمر أخيه العادل ، نعم قد نظم السلطان مجلساً يشير عليه فى أمور الحرب وغلب رأيه

الخاطئ — فى بعض الأحيان — على رأى السلطان مع صحتـــه وسداده كمـا وقع فى « صور » و « عكة » ولكن لا يمكن لأحد أن يدل على عضو من أعضاء هـذا المجلس كان لرأيه فى نفس السلطان تأثير أكثر من رأى غيره ، وإن إخوته وأبناءه وأبناء إخوته وزملاءه القدماء وعماله الجدد والقضاة العقلاء والوزراء المتحفظين والثقات الأوفياء والوعاظ المتعصبين والعلماء الكبار كلهم أجمعوا على الجهاد ، وساهموا فيه بالفعل ، ولم يألوا جهداً فى النصح لمولاهم وتعزيزه ، كل حسب قوته وكفاءته ، وهل كان فيهم أحد ممن نسى أميرهم ومولاهم ؟ ! » .

« وهل كان فى مثل هذا الموقف الحرج والمأزق المتلاحم الذى يشوش الفكر ويشتت البـال ويجهـد النفس إلا قلب واحد غلاب تمكن من جميع القلوب ، وإلا إرادة واحدة جبارة قهرت سائر النفوس ، وكانت هـذه الارادة إرادة السلطان صلاح الدين وذلك القلب قلبه[1] » .

---

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص : ٣١٠ — ٣١٢ .

وفاة السلطان :

وبعد ما قام بواجبه المقدس أحسن قيام ، وحصن العالم الاسلامى من خطر الصليبيين ، استأثر الله بابن الاسلام البار فى ٢٨ من صفر ٥٨٩ هـ وهو فى السابعة والخمسين من عمره[1] .

ويتحدث القاضى ابن شداد عن وفاة السلطان ، فيقول :

« ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر — وهى الثانية عشرة من مرضه — اشتد مرضه وضعفت قوته ، و وقع فى أوائل الأمر من أول الليل ، وحال بيننا وبينه النساء ، واستحضرت أنا والقاضى الفاضل تلك الليلة وابن الزكى ، ولم يكن عادته الحضور فى ذلك الوقت ، وحضر بيننا الملك الأفضل ، وأمر أن نبيت عنده ، فلم ير القاضى الفاضل ذلك رأياً ، فان الناس كانوا فى كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة ، فخاف إن لم ننزل أن يقع الصوت فى البلد ، وربما نهب الناس بعضهم بعضاً ، فرأى المصلحة فى

(١) صرح ابن كثير أن السلطان ولد فى سنة ٥٣٢ هـ .

نزولنا ، واستحضار الشيخ أبى جعفر إمام « الكلاسة » — وهو رجل صالح — ليبيت بالقلعة ، حتى إذا احتضر رحمه الله بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء ، وذكره الشهادة ، وذكره الله تعالى ، ففعل ، ونزلنا ، وكل منا يود فداءه بنفسه ، وبات فى تلك الليلة — رحمة الله عليه — على حال المنتقلين إلى الله تعالى ، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ، ويذكره الله تعالى ، وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع ، لا يكاد يفيق إلا فى أحيان » .

« ولقد حكى لى لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى : « لا إله إلا هو ، عليه توكلت » تبسم وتهلل وجهه وسلمها إلى ربه » .

« وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسعة وثمانين وخمسمائة » .

« وكان يوماً لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين ، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلم إلا الله تعالى ، وبالله لقد كنت أسمع من

بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم ، وما سمعت هذا الحديث إلا على ضرب من التجوز والترخص إلا فى ذلك اليوم ، فانى علمت من نفسى ومن غيرى أنه لو قبل الفداء لفدى بالنفس[1] » .

ويقول ابن شداد :

« إن السلطان لم يخلف فى خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية ، وجرماً واحداً ذهباً ، ولم يخلف ملكاً ، ولا داراً ، ولا عقاراً ، ولا بستاناً ، ولا قرية ، ولا مزرعة ، ولا شيئاً من أنواع الأملاك[2] » .

« وما أمكننا أن ندخل فى تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض ، حتى فى ثمن التبن الذى بلت به الطين . . . وجميع ما احتاج اليه من الثياب فى تكفينه قد أحضره القاضى الفاضل من وجه حل عرفه[3] » .

---

(١) النوادر السلطانية » : ص : ٢٤٩ — ٢٥٠ .

(٢) نفس المصدر : ص ٦ .

(٣) « النوادر السلطانية » : ص ٢٥١ .

السلطان الزاهد :

ويتحدث القاضى ابن شداد عن سيرة السلطان وخلاله وأخلاقه ومزاياه فيقول :

« وكان — رحمة الله عليه — حسن العقيدة ، كثير الذكر لله تعالى ، قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء » .

« وأما الصلاة فكان — رحمه الله تعالى — شديد المواظبة عليها بالجماعة ، حتى أنه ذكر يوماً أن له سنين ما صلى إلا جماعة ، وكان إن مرض يستدعى الامام وحده ، ويكلف نفسه القيام ويصلى جماعة ، وكان يواظب على السنن الرواتب ، وكان له صلوات يصليها إذا استيقظ فى الليل ، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح (على مذهب الشافعية) ، ولقد رأيته — قدس الله روحه — يصلى فى مرضه الذى مات فيه قائماً ، وما ترك الصلاة إلا فى الأيام الثلاثة التى تغيب فيها ذهنه » .

« وأما الزكاة فانه مات ـ رحمه الله تعالى — ولم يحفظ

ما تجب عليه به الزكاة ، وأما صدقة النفل ، فانها استغرقت جميع ما ملكه من الأموال » . (ولم يخلف شيئاً من الأملاك كما نقلنا عن ابن شداد فيما سبق) .

« وأما صوم رمضان فانه كان عليه من فوائت بسبب أمراض تواترت عليه فى رمضانات متعددة ، وكان القاضى الفاضل قد تولى ثبت تلك الأيام . . . ومع كون الصوم لا يوافق مزاجه ألهمه الله تعالى الصوم وأقدره على ما قضاه من تلك الفوائت ، فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التى يصومها ، لأن القاضى كان غائباً ، وكان الطبيب يلومه ، وهولا يسمع ، ويقول : لا أعلم ما يكون ، فكأنه كان ملهماً ما يراد به رحمه الله تعالى » .

« وأما الحج فانه كان لم يزل عازماً عليه وناوياً له فى العام الذى توفى فيه ، فانه صمم العزم عليه ، وأمر بالتأهب ، وعملنا الزفادة ، ولم يبق إلا المسير ، فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت وخلو اليد عما يليق بأمثاله ، فأخر إلى العام المستقبل فقضى الله ما قضى » .

« وكان — رحمه الله تعالى — يحب سماع القرآن العظيم . . . وكان يستقرىء من يحرسه فى الليل — وهو فى برجه — الجزأين والثلاثة والأربعة وهو يسمع ، وكان - رحمه الله تعالى - خاشع القلب رقيقه ، غزير الدمعة إذا سمع القرآن ، يخشع قلبه وتدمع عينه فى معظم أو قاته » .

« وكان — رحمه الله — شديد الرغبة فى سماع الحديث ، ومتى سمع عن شيخ ذى رواية عالية وسماع كثير ، فانه إن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه ، فأسمع من يحضره فى ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالا له ، وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور فى مجالسهم سعى إليه وسمع عليه ، وكان — رحمه الله — يحب أن يقرأ الحديث بنفسه ، وكان يستحضرنى فى خلوته ، ويحضر شيئاً من كتب الحديث ، ويقرأها هو ، فاذا مر بحديث فيه عبرة رق قلبه ، ودمعت عينه » .

« وكان — رحمه الله — كثير التعظيم لشعائر الدين . . ولقد أمر صاحب حلب الملك الظاهر — أعز الله أنصاره — بقتل شاب يقال له : السهروردى ، قيل عنه إنه كان معانداً للشرائع مبطلا » .

« وكان — قدس الله روحه — حسن الظن بالله ، كثير الاعتماد عليه ، عظيم الانابة إليه ، ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه ، وذلك أن الفرنج — خذلهم الله — كانوا نازلين ببيت نوبة ، وهو موضع قريب من القدس الشريف — حرسها الله تعالى — بينهما بعض مرحلة ، وكان السلطان بالقدس ، وقد أقام يزكا(١) على العدو محيطاً به ، وقد سير إليهم الجواسيس والمخبرين ، فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس ومحاصرته ، وتركيب القنابل عليه ، واشتدت مخافة المسلمين بسبب ذلك ، فاستحضر الأمراء وعرفهم ما قد دهم المسلمين من الشدة ، وشاورهم فى الاقامة بالقدس ، فأتوا بمجاملة باطنها غير ظاهرها ، وأصر

(١) اليزك : لفظ فارسى معناه طلائع الجيش .

الجميع على أنه لا مصلحة فى إقامته بنفسه ، فانها مخاطرة بالاسلام ، وذكروا أنهم يقيمون هم ، ويخرج هو — رحمه الله — بطائفة من العسكر يكون حول العدو كما كان الحال بعكة ، ويكون هو ومن معه بصدد منع ميرتهم والتضييق عليهم ، ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدفع عنه ، وانفصل مجلس المشورة على ذلك ، وهو مصر على أن يقيم هو بنفسه ، علماً منه أنه إن لم يقم لم يقم أحد ، فلما انصرف الأمراء إلى بيوتهم جاء من عندهم من أخبر أنهم لا يقيمون إلا أن يقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده ، حتى يكون هو الحاكم عليهم والذى يأتمرون بأمره ، فعلم أن هذه إشارة منهم إلى عدم الاقامة ، وضاق صدره ، وتقسم فكره ، واشتدت فكرته » .

« ولقد جلست فى خدمته فى تلك الليلة — وكانت ليلة الجمعة — من أول الليل إلى أن قارب الصبح ، وكان الزمان شتاء ، وليس معنا ثالث إلا الله ، ونحن نقسم أقساماً ، ونرتب على كل قسم بمقتضاه حتى أخذنى الاشفاق

عليه والخوف على مزاجه ، فانه كان يغلب عليه اليبس ، فشفعت إليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة ، فقال ـ رحمه الله ـ لعلك جاءك النوم ، ثم نهض ، فما وصلت إلى بيتى وأخذت لبعض شأنى إلا وأذن المؤذن ، وطلع الصبح وكنت أصلى معه الصبح فى معظم الأوقات ، فدخلت عليه وهو يمر الماء على أطرافه ، فقال : ما أخذنى النوم أصلا ، فقلت : قد علمت ، فقال : من أين ؟ فقلت : لأنى ما نمت ، وما بقى وقت للنوم . ثم اشتغلنا بالصلاة ، وجلسنا على ما كنا عليه ، فقلت له : قد وقع لى واقع ، وأظنه مفيداً إن شاء الله تعالى ، فقال : وما هو ؟ فقلت له : الاخلاد إلى الله تعالى ، والانابة إليه ، والاعتماد فى كشف هذه الغمة عليه ، فقال : وكيف نصنع ؟ فقلت : اليوم الجمعة ، يغتسل المولى عند الرواح ويصلى على العادة بالأقصى موضع مسرى النبى ﷺ ، ويقدم المولى التصدق بشىء خفية على يد من يثق به ، ويصلى المولى ركعتين بين الأذان والاقامة ويدعو الله فى سجوده ، فقد ورد فيه حديث صحيح ، وتقول

فى باطنك : إلهى قـد انقطعت أسبابى الأرضية فى نصرة دينك ، ولم يبق إلا الاخلاد إليك والاعتصام بحبلك والاعتماد على فضلك ، أنت حسبى ونعم الوكيل — فان الله أكرم من أن يخيب قصدك ، ففعل ذلك كله ، وصليت إلى جانبه على العادة ، وصلى الركعتين بين الأذان والاقامة ، ورأيته ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته ، ثم على سجادته ، ولا أسمع ما يقول ، فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من « عز الدين جرديك » ، وكان على اليزك يخبر فيها أن الفرنج مختبطون ، وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى الصحراء ووقفوا إلى قائم الظهيرة ، ثم عادوا إلى خيامهم ، وفى بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنه بمثل ذلك ، ووصل فى أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا . . ولما كانت بكرة الاثنين جاء البشير يخبر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرملة »[1] .

---

(١) « النوادر السلطانية » ص ٦ — ١٠ .

مكارم الأخلاق :

وكان السلطان مع زهده وورعه ونقاء جيبه يتحلى بالعدل والعفو ، والحلم والجود ، والمروءة والكرم ، والصبر والصرامة ، والثبات والاستقامة ، وغيرها من مكارم الأخلاق ومحاسن الأوصاف ، يقول ابن شداد :

« وكان يجلس للعدل فى كل يوم اثنين وخميس فى مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير ، وعجوز هرمة وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً ، على أنه كان فى جميع زمانه قابلا لجميع ما يعرض عليه من القصص فى كل يوم ، ويفتح باب العدل ، ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات ، وكان يجلس مع الكاتب ساعة إما فى الليل أو النهار ، ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ، ولم يرد قاصداً أبداً ولا منتحلا ولا طالب حاجة ، وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة رحمة الله عليه . . وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته ، وكشف

ظلامته واعتنى بقصته ، ولقد رأيته واستغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له : ابن زهير ، على « تقي الدين » ابن أخيه ، فأنفذ إليه ليحضر إلى مجلس الحكم ، وكان « تقي الدين » من أعز الناس عليه وأعظمهم عنده ، ولكنه لم يحابه في الحق »[1] .

وكان السلطان ذا حلم أصيل وتؤدة ، وقد روى المؤرخون قصصاً من قوة احتماله ، وشدة حلمه ، وصبره على الأذى ، وإحسانه إلى من أساء إليه ، لو رويت عن أوساط الناس لكانت موضع الدهشة والاستغراب ، فكيف من ملك قاهر ، وسلطان قوي !! وقد طلب مرة ماءا للشرب ، وتأخر إحضاره فكرر الطلب ولم يحضر ، حتى اتفق ذلك خمس مرات ولم يحضر ، فلم يزد على أن قال : إخواني إني أموت عطشاً ! فأحضر وشربه السلطان ، ولم يلم أحداً على تأخيره ، وأبل من مرض طال به ، ودخل الحمام ليستحم ، فوجد الماء شديد السخونة ، فطلب ماءا بارداً ، فأحضر الخادم الماء ،

---

(١) « النوادر السلطانية » : ص ١١ .

ووقع عليه الاناء الذى فيه ، ولم ينج من الموت إلا بلطف من الله ، فما زاد أن قال : إذا كنتم تنوون قتلى فأخبرونى بذلك ، واعتذر الخادم وسكت السلطان ، وذكر القاضى ابن شداد أخباراً كثيرة من صفحه عن الأمراء ، وسعة صدره وحلمه[1] .

وقد سجل القاضى بهاءالدين قصصاً عديدة للسلطان فى عفوه وحلمه ، وصفحه عن أخطاء جنوده وزلات أصحابه[2] .

وأما فى جوده وسخائه : فكان السلطان رحمه الله ـ كما صرح به ابن شداد ـ : « ربما يهب الأقاليم ، وفتح « آمد » وطلبها منه ابن قره أرسلان فأعطاه إياه ، ورأيته قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف ، وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق ، ولم يكن فى الخزانة ما يعطى الوفود ، فلم أزل أخاطبه فى معناهم حتى باع أشياء من بيت المال وفضضنا ثمنها عليهم ، ولم يفضل منه درهم واحد . . . وكان

---

(١) راجع « النوادر السلطانية » ، وما ألف فى أخباره .

(٢) النوادر السلطانية ، ص ٢١ ـــ ٢٤ .

نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً أن يفاجئهم مهم لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه ، وسمعته فى معرض حديث جرى يقول : يمكن أن يكون فى الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب ، فكأنه أراد بذلك نفسه — رحمه الله تعالى —[1] » .

ويقول ابن شداد فى موضع آخر :

« وكان السلطان كثير المروءة ، ندى اليد ، كثير الحياء ، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف ، وكان يكرم الوافد عليه ، وإن كان كافراً . . . ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب « صيدا » بالناصرة فاحترمه وأكرمه ، وأكل معه الطعام ، ومع ذلك عرض عليه الاسلام ، فذكره طرفاً من محاسنه وحثه عليه[2] » .

وكان السلطان كريم النفس رقيق القلب ، يتوجع للمظلوم ويرثى له ، ويجبر مصابه ، يدل على هذا ما يحكى ابن

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٣ — ١٤ .

(٢) « النوادر السلطانية » : ص ٢٤ .

شداد فى كتابه فيقول :

« ولقد كنت راكباً فى خدمته فى بعض الأيام قبالة الافرنج ، وقد وصل بعض اليزكية ، ومعه امرأة شديدة التخوف ، كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها ، فقال اليزكى : إن هذه خرجت من عند الافرنج فسألت الحضور بين يديك ، وقد أتينا بها ، فأمر الترجمان أن يسألها عن قصتها ، فقالت : اللصوص المسلمون دخلوا البارحة إلى خيمتى وسرقوا ابنتى ، وبت البارحة أستغيث إلى بكرة النهار ، فقال لى المملوك : السلطان هو أرحم ، ونحن نخرجك إليه تطلبين ابنتك منه ، فأخرجونى إليك ، وما أعرف ابنتى إلا منك ، فرق لها ودمعت عينه ، وحركته مروءته ، وأمر من ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها ، وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه ، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه ، فما كان إلا أن وقع نظرها عليه ، نخرت إلى الأرض تعفر وجهها فى التراب ، والناس يبكون على ما نالها ، وهى

ترفع طرفها إلى السماء ولا نعلم ما تقول ، فسلمت ابنتها إليها وحملت حتى أعيدت إلى عسكرهم[1] » .

ويقول ابن شداد :

« إنه ما أحضر بين يديه يتيم إلا ترحم على مخلفيه وجبر قلبه ، و أعطاه وجبر مصابه ، وإن كان له من أهله كبير يعتمد سلمه إليه ، وإلا أبقى له من الخير ما يكف حاجته وسلمه إلى من يعتنى بتربيته ويكفلها ، وكان لا يرى شيخاً إلا يرق له ويعطيه ويحسن إليه[2] » .

خلال الفتوة والفروسية :

ويدل على صبره واستقامته فى الشدائد والأهوال ما حكى عنه القاضى بهاء الدين ، فقال : إنه رآه بمرج عكة « وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دما ميل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه ، بحيث لا يستطيع الجلوس ، وإنما يكون منكباً على جانبه إن كان بالخيمة ، وامتنع من

(١) « النوادر السلطانية » : ص ٢٦ .

(٢) « النوادر السلطانية » : ص ٢٨ .

عند الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس ، وكان يأمر أن يفرق على الناس ، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو ، وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلباً بغية القتال ، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة المغرب يطوف على الأطلاب ، صابراً على شدة الألم وقوة ضربان الدماميل ، وأنا أتعجب من ذلك فيقول : إذا ركبت يزول عنى ألمها حتى أنزل ! ! وهذه عناية ربانية[1] » .

ولم يزل يطارد العدو فى معركة - وهو فى حالة المرض - إلى أن دخل الليل فضربت له خيمة لطيفة ، يقول القاضى ابن شداد :

« وبتنا تلك الليلة أجمع ، أنا والطبيب نمرضه ونشاغله ، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى ، حتى لاح الصباح ، ثم ضرب البوق وركب هو وركبت العساكر ، وأحدقت بالعدو ، ورحل العدو عائداً إلى خيامهم من الجانب الغربى من النهر ، وضايقهم المسلمون فى ذلك اليوم مضايقة شنيعة ، وفى ذلك

(١) نفس المصدر : ص ١٨ .

اليوم قدم أولاده بين يديه احتساباً وجميع من حضر منهم ، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا والطبيب . . وبقى - رحمه الله - فى مرضه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار ، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بأرحتهم ، وعدنا إلى منزلنا فى الليلة الماضية[1] » .

وكان السلطان من « عظماء الشجعان » ويضرب به المثل فى الشجاعـــة ، وقوة النفس ، وشدة الجأش ، ومن ذلك ما يروى ابن شداد ، فيقول :

« وكان لا بد له من أن يطوف حول العدو فى كل يوم مرة أو مرتين . . . وكان رحمه الله تعالى — إذا اشتد الحرب — يطوف بين الصفين ، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ، ويرتب الأطلاب ، ويأمرهم بالتقدم والوقوف فى مواضع يراها ، وكان يشارف العدو ويحاوره — رحمه الله — ، ولقد قرىء عليه جزءان من الحديث بين

---

(١) « النوادر السلطانية » : ص ١٩ - ٢٠ .

الصفين ، وذلك أنى قلت له : قد سمع الحديث فى جميع المواطن الشريفة ، ولم ينقل أنه سمع بين الصفين ، فان رأى المولى أن يؤثر عنه ذاك كان حسناً ، فأذن فى ذلك فأحضر جزء كما أحضر من له به سماع ، فقرىء عليه ، ونحن على ظهور الدواب بين الصفين ، نمشى تارة ونقف أخرى[1] » .

« وما رأيته استكثر العدو أصلا ولا استعظم أمرهم قط[2] » .

« وقد حارب فى بعض الأحيان عدواً يبلغ عدده إلى خمسمائة ألف أو ستمائة ألف ، فنصره الله على عدوه ، فقتل وأسر خلقاً كثيراً منهم » .

« ولقد وصل فى ليلة واحدة نيف وسبعون مركباً على عكة — وأنا أعدها — من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس وهو لا يزداد إلا قوة نفس[3] » .

---

(١) « النوادر السلطانية » : ص ١٦٥ .

(٢) نفس المصدر : ص ١٥ .

(٣) « النوادر السلطانية » : ص ١٥ .

« ولقد انهزم المسلمون فى يوم المصاف الأكبر بمرج عكة ، حتى القلب ورجاله ، ووقع الكؤوس والعلم ، وهو — رضى الله عنه — ثابت القدم فى نفر يسير حتى انحاز إلى الجبل ، يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو فى ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ، ولم يزل رحمه الله مصابراً لهم ، وهم فى العدة الوافرة[1] » .

ويدل على بعد همة السلطان ، وقوة إرادته وصلابة عزمه وتحمسه لدينه ، ما يحكى ابن شداد أن السلطان قال له ذات يوم : « أما أحكى لك شيئاً فى نفسى ؟ إنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد وأوصيت وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم واتبعتهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت[2] » .

---

(١) نفس المصدر : ص ١٥ — ١٦ .

(٢) « النوادر السلطانية » : ص ١٧ .

علم السلطان وفضله :

وكان السلطان عالماً فاضلا نسابة . يقول ابن شداد : « إنه كان حافظاً لأنساب العرب و وقائعهم ، عارفاً بسيرهم وأحوالهم ، حافظاً لأنساب خيلهم ، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها ، بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمع من غيره[1] » .

و ذكر بعض المؤرخين أنه كان حافظاً لحماسة أبي تمام بتمامها[2] .

ويتحدث « لين بول » عن أوائل حياته ، فيقول :

« وكان ميله الطبعي إلى علوم الدين ، فكان يسمع الأحاديث من علماء عصره ، ويعكف على البحث عن دلائلها ورواتها والنقاش حول مسائل الفقه وتفسير آيات القرآن ، وفضلا على ذلك ، فكان أحب شيء إلى نفسه أن يدعم

---

(١) نفس المصدر : ص ٢٧ .

(٢) « البداية والنهاية » لابن كثير ج ١٣ ، ص ٥ .

مذهب أهل السنة والجماعة بحجج دامغة ودلائل قوية ثابتة[1] » .

انقراض الدولة الفاطمية ومكرمة أخرى للسلطان :

وكانت سيطرة صلاح الدين على مصر نقطة انقراض دولة العبيديين[2] المعروفة بـ « الفاطمية » ، التى ظلت تجول وتصول فى البلاد الاسلامية طوال قرنين وثمانية وستين عاماً ، وأثرت فى ثقافة جزء كبير من العالم الاسلامى وأخلاقه وحضارته تأثيراً كبيراً ، وكان عصرهم مليئاً بالعجائب العقائدية ، والأحكام الغريبة ، والقوانين المضحكة ، نقدم بعض نماذجها نقلا عن كتاب (الخطط والآثار) للمقريزى :

« أمر فى المواريث بالرد على ذوى الأرحام ، وأن لا يرث مع البنت أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ولا ابن

---

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص ٢٦٢ .

(٢) أجمع محققو الأنساب أن بنى عبيد لا ينتمون إل أهل البيت النبوى بصلة ، وإنما ينتمون إلى رجل اسمه عبيد ، كان مجوسياً ، أو يهودياً ، وقد استوعب الموضوع القاضى أبو بكر محمد بن الطيب فى كتابه : « الكشف عن أسرار الباطنية » ، والقاضى عبد الجبار فى كتابه : « تثبيت دلائل النبوة » ، والمقدسى فى كتابه : « كشف ما كان عليه بنوعبيد » .

أخ ولا ابن عم ، ولا يرث مع الولد الذكر أو الأنثى إلا الزوج أو الزوجة والأبوان والجدة ، ولا يرث مع الأم إلا من يرث مع الولد » .

واعتبر الخروج من هذا القانون عداوة لفاطمة رضى الله عنها .

« وصار صوم شهر رمضان والفطر على حساب لهم ... وانقطع طلب الهلال من مصر » .

« وفى سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة أمر العزيز بن المعز بقطع صلاة التراويح من جميع البلاد المصرية » ، « وفى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة ضرب رجل بمصر ، وطيف به فى المدينة من أجل أنه وجد عنده كتاب « الموطأ » لمالك بن أنس رحمه الله »[1] .

« وفى ٣٩٣ هـ قبض على ثلاثة عشر رجلا ، وضربوا وشهروا على الجمال ، وحبسوا ثلاثة أيام من أجل أنهم صلوا صلاة الضحى » .

---

(١) « الخطط والآثار » : ج ١/ ص ٣٤٠ .

« وفى ٣٩٥ هـ قرىء سجل آخر فيه منع الناس من أكل الملوخيا التى كانت محببة لمعاويه بن أبى سفيان ، ومنعهم من أكل البقلة المسماة بالجرجير المنسوبة لعائشة رضى الله عنها » .

« وكتب فى صفر من هذه السنة على سائر المساجد ، وعلى الجامع العتيق بمصر من ظاهره وباطنه من جميع جوانبه ، وعلى أبواب الحوانيت والحجر وعلى المقابر والصحراء : سب السلف ولعنهم ، ونقش ذلك ولون بالأصباغ والذهب[1] » .

« شرب الخمر ورخص فيـــه للناس وفى سماع الغناء وشرب الفقاع ، وأكل الملوخيا وجميع الأسماك ، فأقبل الناس على اللهو ، وتفاقم الأمر فى شدة البلاء ، وصاح الناس بالظاهر : الجوع الجوع ! يا أمير المؤمنين لم يصنع بنـا هذا أبوك ولا جدك فالله الله فى أمرنا[2] » .

« وفى ٤٢٤ هـ ركب ولى العهد من القاهرة إلى مصر وقد زينت الطرقات ، فكان إذا مر بقوم قبلوا له الأرض . . .

---

(١) « الخطط والآثار » : ٢ / ٣٤١ .

(٢) « الخطط والآثار » : ٢ / ٣٥٤ .

وبويع بالخلافة ، وعمره يومئذ سبع سنين[1] » .

وكان حكم السلطان صلاح الدين نهاية هذا العصر المضحك الغريب ، وفاتحة عهد جديد ، بدأت تندرس فيه معالم الشيعية والرفض من مصر ، وازدهرت السنة وانتشرت ، وأسست المدارس والمعاهد التى كان يدرس فيها علماء السنة علوم الشريعة الاسلامية ، وأخذت تتضاءل رواسب عهد العبيديين ، حتى غابت واختفت ، وقد أصبح مذهب الاسماعيلية — الذى ظل فى مصر كدين رسمى طيلة ثلاثة قرون — غريباً فى وطنه ، وطريداً فى مركزه ، وشريداً فى معقله .

« واختفى مذهب الشيعة والاسماعيلية والامامية حتى فقد من أرض مصر كلها »[2] .

وكان عصر حكم العبيديين عصراً ابتلى فيه الاسلام ابتلاءا عظيماً ، ومنى فيه بمحنة كبيرة ، انتهكوا فيه محارم الله ،

---

(١) « الخطط والآثار » : ١/ ٣٥٥ .

(٢) « الخطط والآثار » : ١/ ٣٥٥ .

وتلاعبوا بالشريعة الاسلامية ، ونالوا من السنة وعقائد الاسلام ، فكان العلماء وأهل السنة مقهورين ومستضعفين ، منخفضى الرؤوس أذلاء ، ليس لهم حرمة ولاقيمة ، ولا شوكة ولا سلطان ، وأما الطغاة والأوباش والأوغاد والأجلاف فألقى حبلهم على غاربهم ، يعيثون فى الأرض فساداً ، وقد استفحل أمرهم وتفاقم شرهم .

ويتحدث العلامة المقدسى عن هذا العصر فى كتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين » ، فيقول :

« وبقى هذا البلاء على الاسلام من أول دولتهم إلى آخرها ، وذلك من ذى الحجة سنة تسع وتسعين وماتتين إلى سنة سبع وستين وخمسمائة . وفى أيامهم كثر أعداء أهل السنة ، واستحكم أمرهم ، ووضعوا المكوس على الناس ، واقتدى بهم غيرهم ، وأفسدوا عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام ، كالنصيرية والدرزية والحشيشية — نوع منهم — وتمكن دعاتهم منهم — لضعف عقولهم وجهلهم — مالم يتمكنوا من غيرهم ، وأخذت الفرنج أكثر

البلاد بالشام والجزيرة إلى أن من الله على المسلمين بظهور البيت الأتابكى ، وتقدمه مثل صلاح الدين ، فاستردوا البلاد ، وأزالوا هذه الدولة عن رقاب العباد[1] » .

وكان من الطبيعى أن يفرح أهل السنة والمؤمنون الصادقون بهذه الثورة فى الحكم ، التى كانت مقدمة لثورة فى الدين والأخلاق ، ويعرب العلامة المقدسى — الذى ولد قبل تسعة وعشرين عاماً من هـذه الثورة ، وشاهد ما أعقبها من آثار وتقلبات — عما أفعم قلبه من غبطة وفرح كبير ، فيقول : « انقرضت تلك الدولة وزالت عن الاسلام بمصر بانقراضها الذلة[2] » .

وقد حدث العلامة الحافظ ابن قيم فى كتابه « الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة » عن انتشار الباطنية وعواقبه ثم يذكر انقراض هذه الدولة بأيدى نور الدين وصلاح الدين بعبارة تتدفق بالقوة والحماس :

---

(١) كتاب « الروضتين فى أخبار الدولتين » : ١ / ٢٠١ .

(٢) كتاب « الروضتين فى أخبار الدولتين » : ١ / ٢٠١ .

« ثم خمـــدت دعوة هؤلاء فى المشرق ، وظهرت من المغرب قليلا قليلا ، حتى استفحلت وتمكنت ، واستولى أهلها على كثير من بلاد المغرب ، ثم أخذوا يطأون البلاد حتى وصلوا إلى بلاد مصر ، فملكوها ، وبنوا بهـا القاهرة ، وأقاموا على هذه الدعوة مصرحين بها هم وولاتهم وقضاتهم ، وفى زمانهم صنفت رسائل إخوان الصفا والاشارات والشفا وكتب ابن سينا ، فانه قال : كان أبى من أهل الدعوة الحاكمية ، وعطلت فى زمانهم السنة وكتبها والآثار جملة إلا فى الخفية ، وشعار هذه الدعوة تقديم العقل على الوحى ، واستولوا على بلاد المغرب ، ومصر والشام والحجاز ، واستولوا على العراق ، وأهل السنة فيهم كأهل الذمة بين المسلمين ، بل كان لأهل الذمة من الأمان والجاه والعز عندهم ما ليس لأهل السنة ! فكم أغمد من سيوفهم فى أعناق العلماء ، وكم مات فى سجونهم من ورثة الأنبياء ، حتى استنقذ الله الاسلام والمسلمين من أيديهم فى أيام نور الدين وصلاح الدين ، فأبل الاسلام من علتـــه ، بعد ما وطن نفسه على العزاء ،

وانتعش بعد طول الخمول حتى استبشر أهل الأرض والسماء ، وأبدر هلاله بعد أن دخل فى المحاق ، وثابت إليه روحه بعد أن بلغت التراق ، وقيل من راق ، واستنقذ الله بعبده وجنوده بيت المقدس من أيدى عبدة الصليب ، وأخذ كل من أنصار الله و رسوله من نصرة دينه بنصيب »[1] .

والكتب التى تؤرخ هذا العصر تحدثنا أن هذا النبأ السار تلقى ترحيباً بالغا من العالم الاسلامى بوجه عام والشام والعراق بوجه خاص ، وكاد يطير المسلمون كلهم فرحاً وسروراً .

وبالجملة فان صلاح الدين بينما هو — بالوقوف فى وجه الغزاة الصليبيين الطامعين — قد أنقذ العالم الاسلامى من الرق السياسى والفوضى الخلقية والثقافية ، وأنجاه من براثن الزاحفين من الغرب ، إذا هو - بالقضاء على الدولة الفاطمية العبيدية - سد أبواب الفساد الذى قد أخذ يستشرى ويشيع الباطنية والاسماعيلية لا فى مصر فحسب ، بل فى العالم

(١) « الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة » : ١ / ٣٣٣ - ٣٣٤ .

الاسلامى كله ، وتمخض عن الفوضى الفكرية والتدهور العقائدى ، والتفسخ الخلقى الذى ظلت الأمة الاسلامية المنكوبة فريستها طيلة ثلاثة قرون .

إن التاريخ الاسلامى المجيد لن ينسى هذين العملين اللذين قام بهما السلطان صلاح الدين الأيوبى ، ولن يتخلى أحد من المسلمين فى أى عصر ومصر من منة هذا المجاهد الكردى الباسل المغوار .